مجلة العلوم الإنسانية عدد 49جوان2018، المجلد ب ،ص.ص 89 -102

مصطلح التماسك النصي في التراث اللغوي العربي: مقاربة نصية

د. عز الدين هبيرة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

ملخص:

تنشأ الدراسات النصية العربية علما مكتملا يحقق التماسك النصي لمجموعة من الجمل، بل اعتمدت في تحقيق ذلك على معطيات قديمة أو تراثية؛ بمعنى أن علم لسانيات النص لم ينشأ من عدم، وإنما كان للدراسات التراثية أثرها الواضح في نشأته، فهي إذن بمثابة الإرهاصات الأولى لظهور هذا العلم، وكانت المزاوجة بين القديم والحديث منهجا في دراسة الفكر اللغوي، ولعلّ الدراسات اللغوية العربية خير دليل على ذلك؛ إذ تحمل بين ثناياها تحليلات نصية معاصرة ،خاصة فيما تعلق بجانب الدراسة النصية في طورها الأول، بعيدا عن المصطلح اللساني المتداول الآن.

و يرتبط التماسك النصي **Cohésion** بالنص ارتباطا وثيقا، فلا وجود للتماسك دون النص، ولا يتحقق للنص نصيّته إن لم يكن متماسكا، وهذا ما أسعى إليه من خلال تناول هذا مصطلح التماسك النصي في الدراسات اللغوية العربية التراثية القديمة لإبراز دور العرب في وضع أسس هذه النظرية.

Abstract:

The textual study didn’t generate a complete note that achieves the textual consistency of a set of sentences, rather; relied on an old or traditional data.

In other words, the linguistics of the text did not arise from the lack of science.

The combination of the old and the modern was an approach in the study of linguistic studies is good proof of that;

Because it contains contemporary textual analysis,especially about the study of text in the first phase away from the current linguistic term, the text is closely related; there is no coherent.

This is what I seek by addressing this term of textual coherence in the studies of ancient traditional Arabic language to show the Arabs role in the foundation of this theory.

مقدّمة:

لم تولد الدراسات النصية علما مكتملا يحقق التماسك النصي لمجموعة من الجمل، كما أنها قد اعتمدت في تحقيق ذلك على معطيات قديمة أو تراثية؛ بمعنى أن علم لسانيات النص لم ينشأ من عدم، وإنما كان للدراسات التراثية أثرها الواضح في نشأته، فهي إذن بمثابة الإرهاصات الأولى لظهور هذا العلم، سواء أكان ذلك على مستوى الدراسات العربية، أم على مستوى الدراسات الغربية.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2018

فكانت المزاوجة بين القديم والحديث منهجا في دراسة الفكر الإنساني في عمومه، والفكر اللغوي خصوصا، ولعلّ الدراسات اللغوية العربية خير دليل ومثال على ذلك، خاصة فيما تعلق بجانب الدراسة النصية في طورها الأول، بعيدا عن المصطلح اللساني المتداول الآن، بحيث تعتبر البلاغة والتفسير والنقد والنحو وما فيها من أفكار تحمل بين ثناياها تحليلات نصية معاصرة.

وموضوع التماسك النصّي من المواضيع الهامة التي نالت قدرا لا بأس به من حيث الدراسة، واهتمام علماء لسانيات النص به،

وهذا يعني أنه أحد أسس البحث النصي الحديث، حيث تنطلق الدراسات اللسانية المعاصرة من أن النص بنية متماسكة ووحدة كلية شاملة.

فالتماسك له حضور واجب في أي نص، ذلك أن كل جملة تمتلك بعض أشكال التماسك مع الجملة السابقة، أو اللاحقة دلاليا أو شكليا، وإذا خلا النص من هذه الأدوات، سواء أكانت شكلية أم دلالية، فإنّه يصبح جملا متجاورة ولا يربط بينها رابط، ويصبح النص هيكلا خاليا من الروح الفنية.

ويمكننا القول إن التماسك النصي **Cohésion** يرتبط بالنص ارتباطا وثيقا، فيرتبط به وجودا أو عدما، فلا يوجد تماسك دون نص، ولا يتحقق للنص نصيّته، إن لم يكن متماسكا، وهذا ما نسعى لأجله، حيث سنقوم بتوضيح مفهوم مصطلح التماسك النصي، وكذلك التطرق إلى التماسك النصي في الدراسات العربية القديمة لإبراز دور العرب في وضع أسس هذه النظرية.

وسيتناول هذا المقال العناصر الآتية:
_ مفهوم التماسك لغة واصطلاحا، والتماسك النصي عند النحويين العرب :(سيبويه و الجرجاني و الفراء وبن السراج وابن هشام) ، والبلاغيين: (ابن قتيبة والباقلاني و والرماني الخطابي والعسكري وابن الأثير).
_ **المقدمة:**

1_مفهوم التماسك Cohésion:

نحاول في هذا البحث التعرف على المعنى اللغوي لهذا المصطلح، الذي أخذ الكثير من المعاني عند علماء اللغة العرب.

1-1-التماسك/لغة:

جاء في أساس البلاغة للزمخشري : « أمسك الحبل وغيره ، وأمسك بالشيء ومسك وتمسّك واستمسك وامتسك و(أمسك عليك زوجك) وأمسكت عليه ماله ، حبسته، وأمسك عن الأمر: كفّ عنه وأمسكت واستمسكت وتماسكت أن أوقع على الدابة وغيرها ، وغشيني أمر مقلق فتماسكت ، وفلان يتفكك ولا يتماسك ، وما تماسك أن قال ذلك:وما تمالك،وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك، وحفر في مسكة من الأرض في صلابة»[1] وجاء في لسان العرب أنه: «...شيء ذفيف يربط به... ومسك بالشيء وأمسك به وتمسّك وتماسك واستمسك ومسّك، كلّه احتبس، وفي التنزيل ژئى ئد ىژ .. وفي حديث ابن أبي هالة في صفة النبي ρ: (بَادِنٌ مُتَمَاسِكٌ)، أراد أنه مع بدانته متماسك اللحم ليس بمسترخيه، ولا منفضحه، أي أنه معتدل الخَلْق، كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضا... وأرض مسيكة: لا تشفّ الماء لصلابتها، وأرض مساك أيضا»[2].

لقد ورد مصطلح التماسك في لسان العرب بثلاثة معان هي: الارتباط، والاحتباس والاعتدال، بحيث يتطابق المفهوم الأول مع المعنى الاصطلاحي، لأنّ التماسك النصي هو ارتباط الجمل بعضها ببعض.

إن التماسك في اللغة مقابل للتفكك، وهو بهذا يعني الترابط التام، والشدة والصلابة وترابط الأجزاء بعضها ببعض.

ولم ترد الإشارة في المعاجم اللغوية إلى ارتباط التماسك بالنص اللغوي، سواء أكان منطوقا أم

مكتوبا، بل إن مجاز استعماله مرتبط بالإنسان.

2-1-التماسك/اصطلاحا:

أمّا المعنى الاصطلاحي لمفهوم التماسك **Cohésion**، ولا سيما في مجال الدراسات اللغوية المعاصرة، أو ما يسمى بلسانيات النص، فإنّه يعني التلاحم والترابط بين الوحدات المكوّنة للنص، حيث توجد علاقة بين كل مكوّن من مكونات النص، وبقية أجزائه فيصبح نسيجا واحدا؛ أي أنه خاصية تتصف بها الوحدات الأكبر من الكلمة أو حتى الجملة، وكما يعرفه محمد خطابي فهو: « ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص/ خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته، ومن أجل وصف اتساق الخطاب/ النص، يسلك المحلل الواصف طريقة خطيّة، متدرجا من بداية الخطاب (الجملة الثانية منه غالبا) حتى نهايته، راصدا الضمائر والإشارات المحلية، إحالة قبلية أو بعديه، مهتما أيضا بوسائل الربط المتنوعة، كالعطف والاستبدال، والحذف والمقارنة والاستدراك... كل ذلك من أجل البرهنة على أن النص/ الخطاب (المعطى اللغوي بصفة خاصة) يشكل كلا متآخذا »[3].

لهذا نجد أن الدراسات النصية أولت التماسك عناية خاصة، لأنّه من خلال هذا المصطلح

يتم تمييز النص عن اللانص.

2-التماسك النصي في التراث اللغوي العربي:

إن الدراسات النصية ليست وليدة الدراسات اللغوية الحديثة، بل لها جذور وامتدادات في الدراسات اللغوية السابقة لها، عربية كانت أم غربية، وهناك من الباحثين من يعود بها إلى العهد الأرسطي، ويربط بينه وبين مقولات أرسطو في البلاغة والنصوص كالشعر والخطابة.

ويرى بعض الباحثين أن هناك ارتباطا وثيقا بين البلاغة وعلم النص، لأنّ البلاغة تضع في الاعتبار مستويات القراء وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وتعدد القراءة، وأشكال التواصل، ودرجات الفهم والاستيعاب وغيرها من المبادئ التي يقوم عليها التحليل النصي[4].

غير أن كثيرا من الدارسين من يرفض هذا الارتباط بين البلاغة وعلم النص، إلاّ أنه لا يمكنهم الانفلات من هذه الحقيقة، والتي تجعل علم لسانيات النص منطلِقا من أفكار سابقة له كانت بمثابة الإطار المرجعي، وأنه لم يأت من فراغ.

ولم تكن قضية التماسك النصي وليدة الفكر الغربي ،فلها جذور في التراث العربي؛ إذ اهتم اللغويون والبلاغيون والمفسرون بعناصر التماسك، وقد دفع القرآن الكريم العلماء إلى البحث في سر إعجازه، وبيان روعة نظمه وترابطه، واختلفت آراؤهم في مفهوم النظم، لكن هذه الآراء كلها تصب في إطار تأسيس مفهوم التماسك.

كما أدرك اللغويون العرب أن النص يجب أن يكون وحدة واحدة، وعبّروا عن ذلك بعبارات منها: جودة السبك، وقد ذكروا بعض أسس التماسك، النصي التي أقام عليها العلماء المحدثون أصول نظرية التماسك النصي، وإن لم يؤسسوا نظرية عربية في هذا المجال، إلا أن ما أثبتته الدراسات اللسانية المعاصرة أن العلماء العرب قدموا نظرية نحوية نصية متكاملة في كتب الإعجاز القرآني[5]، وكتب البلاغة والنقد الأدبي وعلوم التفسير وعلوم القرآن[6].

غير أنّ من الدارسين من يعتبر أن النصوص التي ظهرت في زمن مبكر جدا، لا تمثل نظرية لغوية نقدية، مثل نظرية تماسك النص التي تشغل بال الباحثين في العصر الحديث لكنها على أية حال تعدّ مقدمة طيبة تؤكد أن علماء العربية القدامى كان عندهم حس لغوي صحيح، وكانت لديهم رؤية مبكرة في البحث اللغوي والنقدي، وكان يمكن لمن جاء من بعدهم أن يستثمر هذه الرؤية ويطورها فتصل في النهاية إلى حد النظرية العربية في اللغة والنقد.

2-1-التماسك النصي عند النحويين:

لقد حاول القدماء أن يصلوا إلى قيم فنية لنقد النصوص، ولم يكن البحث اللغوي واقفا عند حد الجملة، كما يحلو للبعض أن يصوره، لكنه لم يكن بالمفهوم الذي نتناوله به الآن، بل هو تهمة ألصقت بالقدماء :«على

أننا ينبغي أن نعيد النظر فيما اتهم به بعض المحدثين نحاة العرب من أنهم قصروا جهودهم على نحو الجملة، ولم يتجاوزوها إلى النص، ومن ثم لم يتعدّ تحليلهم للجملة بيان وظائف الكلمة: كالفاعلية والمفعولية داخل الجملة، والعلامة الإعرابية لكل وظيفة، والحق أن هذه التهمة لا تصدق عليهم، لأنّ النحاة الأوائل إنما وضعوا القواعد النحوية من استقراء كلام العرب، أي استنبطوا القواعد من النصوص العربية الفصيحة، ويشهد بذلك كتاب سيبويه الذي تضمن علم العربية كله بأصواتها وصرفها، وتراكيبها ودلالاتها وبلاغتها»[7].

إن هذا القول يثبت أن للعرب القدماء نظرية نصية، حتى وإن كانت نحوية فهي في أصلها جزء لا يتجزأ من النظرية اللغوية التي تخدم النص القرآني.

إلا أن هناك مأخذا يتنافى مع تقديم العرب القدماء لنظرية لغوية نصية متكاملة، خاصة وأنهم اعتمدوا الحدس الذي يكشف عن النظرية في عمق تفكيرهم.

كما أن المتأمل والمدقق في الموروث النحوي يلمح نظرات عميقة للنحاة في بحث أسرار الترابط والتماسك النصي في القرآن الكريم، أو بيان آليات الانسجام النصي، فقد دلت بحوثهم العميقة للنص القرآني على اهتمامهم بإثبات الوحدة النصية في القرآن الكريم، وإنما كانت حاضرة في أذهانهم وأنهم لم يتجاوزوها إلا أنهم لم يضعوها ضمن إطار نظرية نحوية نصية[8].

وقد انطلق النحاة القدماء في دراستهم للنص القرآني من الجملة القرآنية (الآية) ثم انتقلوا به إلى مستوى أكبر وهو (النص): «فالتحليل النحوي عند العرب لا يقف عند حدود الجمل والكلمات بل يمتد بها إلى العبارة وما بعدها»[9].

والعبارة وما بعدها أكبر من الجملة، ويصلان إلى مفهوم النص.

كما بحث النحاة القدماء مفهوم النص، وأقاموا نحوهم على أسس نصية معنوية، فكان لهم فضل الاهتداء المبكر إلى مواطن الفصل والوصل، وتعلّق الكلام واتصال أوله بآخره، ومواضع الوقف والابتداء، وابتداء الكلام وانقطاعه واستئنافه، وكانت لهم نظراتهم العميقة، وفهمهم الدقيق لأنظمة الربط النحوي والتماسك، فلم يقتصر الأمر على ذلك، بل اعتمدوا على روابط خارجية غير لغوية وهي «السياق والمتكلم والمتلقي» وهذا يثبت أن: «دراسة النحاة لم تكن دراسة شكلية، بل دراسة عميقة، فلم يقتصروا على الروابط الداخلية وإنما الروابط الخارجية، ومنها إبراز دور المشاركين في العملية اللغوية ووظيفة السياق في تفسير أبعاد النص، ويظهر ذلك في التحليل اللغوي للنص في كيفية اختيار المبدع لأدواته اللغوية مثل: الأدوات والضمائر، والأزمنة، والتكرارات، والحذف والمقابلات والجمل... أي بالاهتمام بالعلاقات الداخلية والخارجية»[10].

لقد اهتم النحاة القدماء بالمسائل التي تجعل النص اللغوي متماسكا، من علاقات بين الجمل، ودور المشاركين والسياق، وبالروابط الداخلية والخارجية.

كما درس النحاة بنية النص القرآني على أنها بنية مقصودة متماسكة وغير مستقلة عن السياق، وبحثوا علاقات اتصال الكلام أوله بآخره، وعلاقات الألفاظ بعضها ببعض، وربطها بالحكم الإعرابي.

أ-سيبويه (ت180هـ)/الجانب الاتصالي في معالجة النصوص اللغوية:

اكتسبت المعالجات النحوية القديمة عند العرب كثيرا من سمات التحليل النصي المعروفة اليوم، فمنها على سبيل المثال: اهتمام القدماء بالنواحي الاتصالية في معالجة النصوص اللغوية، إذ صنّف كتاب سيبويه في النحو لهذا الغرض، الذي يقول في باب الاستقامة من الكلام والإحالة: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدا.

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجمل وشربت ماء البحر ونحوه.

وأما المستقيم القبيح: فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيدٌ يأتيك وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ»[11].

إنّ قول سيبويه يحوي بعضا من خصائص التحليل النصي منها:

1-عدم الاقتصار على النواحي التركيبية والإعراب في معالجة اللغة، بل يتعداها إلى النواحي الدلالية.

2-الاهتمام بالجانب الاتصالي كما يفعل علماء النصية اليوم، وذلك من خلال اهتمامه بمناسبة اللفظ للسياق الخارجي واتفاقه مع الواقع.

3-تركيزه على الرسالة التي يحملها النص من حيث مطابقتها للواقع، وهو ما يسمى اليوم بقصدية المنتج، ومدى قبول المتلقي لها، وهذا ما يطلق عليه في التحليل النصي بعامل المقبولية.

4-الإشارة إلى أهمية اتساق التركيب اللغوي، وهو ما يسمى بالترابط أو التماسك، ويظهر ذلك في قوله: «وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه»؛ أي في موضع لا يتحقق فيه الترابط[12].

هذا نموذج عن التحليل النصي وخصائصه، في قول سيبويه، مع أن هناك الكثير من الإشارات النصية.

لقد تضمن كتاب سيبويه كله علم العربية بأصواتها وصرفها، وتراكيبها، ودلالاتها وبلاغتها، يقول الشاطبي: «وكتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش، والمراد بذلك أن سيبويه وإن تكلم في النحو فقد نبّه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل باب ما يليق به، حتى وإن احتوى على علم المعاني والبيان، ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني»[13].

فسيبويه لا يقرر في الكتاب قواعد، ولا يشترط للأحكام شروطا، ولا يلتزم تعريف المصطلحات ولا ترديدها بلفظ واحد، وإنما الكتاب فيض غزير من الأساليب والمفردات، وبعض الأساليب مأثور، وبعضه محدث، يعرضها سيبويه ليدرسها ويحللها، ثم يقضي قضاءه فيها صحة أو خطأ حسنا أو قبحا، كثرة أو قلّة، وهكذا[14].

لم يعالج كتاب سيبويه قضايا الأصوات والصرف والنحو فقط، بل تعرض في ثنايا ذلك، كله أيضا لكثير من قضايا اللغة من دلالة وبلاغة وغيرهما، ومن ذلك تعرضه للعلاقة بين اللفظ والمعنى فقسّم الألفاظ –من حيث معانيها- إلى ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف اللفظين، لاختلاف المعنيين، مثل: جلس، ذهب.

الثاني: اختلاف اللفظين، والمعنى واحد، مثل: ذهب، انطلق.

الثالث: اتفاق اللفظين، والمعنى مختلف، مثل: وجدت عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة[15].

وهذا ما تعرض له علماء اللغة قديما وحديثا في علم الدلالة، حيث درسوا التباين، والترادف، والمشترك اللفظي.

ولم يكن سيبويه يدرس الأساليب دراسة نحوية شكلية دون النظر إلى معانيها، بل كان يربط بين صحة الأسلوب واستقامة المعنى، وهذا ما تطرقنا إليه من تقسيمه للكلام إلى مستقيم وحسن ومحال ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.

وقد أدرك سيبويه العلاقة بين ركني الإسناد، وهما: المبتدأ و الخبر، والفعل والفاعل، فبنى حديثه عن التركيب على علاقة الإسناد التي تربط بين المسند والمسند إليه، ومن ثم لم يتناول التركيب كما تناوله المتأخرون من حيث تقسيمه إلى جملة اسمية وفعلية، ولكنه تناوله كما يتناوله البلاغيون، الذين ينصب كلامهم على علاقة الإسناد، ولذا لم يستعمل مصطلح النحاة المتأخرين، وهو مصطلح الجملة، وإنما استعمل مصطلح البلاغيين، وهو المسند والمسند إليه، وفي ذلك يقول: «هذا باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يَغْني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدّا، فمن ذلك الاسم المبتدأ و المبني عليه، وهو قولك: «عبد الله أخوك»، و«هذا أخوك»، ومثل ذلك: «يذهب عبد الله»، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء»[16].

وهذا معناه أن سيبويه قد لاحظ علاقة الإسناد التي لا بد أن تنشأ من تضام كلمتين، وهذه العلاقة المعنوية هي التي أطلق عليها علماء النص الربط الدلالي، أو الحبك أو الالتحام، أو التماسك وإن كان

على مستوى الجملة التي هي نواة النص.

وهناك أيضا إشارات عميقة أخرى كونت اللبنات الأساسية للتحليلات النصية عند سيبويه والنحويين الآخرين، من ذلك أن سيبويه تحدث عن أهمية وجود الضمير الذي يحيل على السابق، وإلا يصبح الكلام غير حسن، ومن أمثلة ذلك:

-يوم الجمعة ألقاك فيه.

-أقل يوم لا ألقاك فيه.

-أقل يوم لا أصوم فيه.

-مكانكم قمت فيه.

-يوم الجمعة صمته.

حيث كان المضمر –الهاء، هو الأول [يوم الجمعة] ولا يحسن في الكلام أن يجعل الفعل مبنيا على الاسم [السابق] ولا يذكر علاقة إضمار الأول حتى يخرج من لفظ الإعمال في الأول ومن حال بناء الاسم عليه وشغله بغير الأول... ولكنه قد يجوز في الشعر، وهو ضعيف في الكلام...[17]

ويعلّق السيرافي في الهامش قائلا: «حذف الهاء يكون في ثلاثة مواضيع: في الصلة والصفة والخبر.. وحذفها في الخبر قبيح»[18].

فقد وقف الإعمال من عدمه على وجود الضمير من عدمه، فوجود الضمير الرابط بين المعمول المتقدم والعامل المتأخر يجيز العمل مثل[19]:

قابلت عليا وزيدا رأيته

ويذكر سيبويه أنه «اختير النصب ها هنا لأن الاسم الأول مبني على الفعل، فكان بناء الآخر على الفعل أحسن عندهم...» [20].

هذه أمثلة تمثل إحالات قبلية عند سيبويه، وهي من صميم التحليل النصي عند النحاة القدماء.

كما أن هذه الإشارات النصيّة التي تكلم عنها سيبويه في كتابه، لا تمثل سوى نسبة قليلة، مما هو متناثر في كتب النحو العربي قديما، حتى وإن كان المصطلح النصي الحالي غائبا، فإنّ التطبيق على الكلام من جملة وعبارة ونصوص شعرية ونثرية فهي موجودة بكثرة.

ب-عبد القاهر الجرجاني (471هـ)/قواعد التماسك النحوي:

لقد حظي عبد القاهر الجرجاني بعناية كبيرة من قبل الباحثين والدارسين المحدثين، كونه من كبار أئمة العربية والبيان في القرن الخامس الهجري (05هـ)، حيث اهتم بالنص القرآني وبأسرار بلاغته، وتجسد ذلك في كتابه: (دلائل الإعجاز)، كما أنه صاحب نظرية النظم، ولا يعني هذا أنه المبتكر الأول لهذه النظرية، فقد سبقه إليها الجاحظ في البيان والتبيين، وأيضا الرماني، لكن الفضل يعود إليه في بلورتها وصياغتها صياغة جديدة.

هذه النظرية التي تحمل في طياتها بذورا لعلم جديد، أصبح يعرف اليوم: بعلم لسانيات النص، يقول إبراهيم خليل: «...لا يشيرون إلى ما في آرائه من تمهيد مبكر، وتوطئة متقدمة في الزمن، لما أصبح معروفا اليوم باسم قواعد التماسك النحوي، الذي هو باب من أبواب النظر يعنى به علم قواعد النص، أو ما يعرف بعلم النص، أو علم اللغة النصي... أنّ الجرجاني عن قصد، أو عن غير قصد، تطرّق إلى كثير مما يعرف بقواعد التماسك النحوي»[21].

لقد نظر الجرجاني إلى القرآن الكريم نظرة كلية باعتباره نصّا واحدا، ومتسائلا: ما لذي أعجز العرب من النص القرآني؟ ويجيب عن هذا السؤال من خلال حديثه عن النظم الذي كشف به أن القرآن الكريم نص متكامل متماسك بطريقة أبهرت العقول، وأنّ إعجازه جاء من هذا الجانب، يقول الجرجاني: «وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعُشرا عشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، واتفاقا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم –ولو حكّ بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول، وخَذِيَت القُروم فلم تملك أن تصول»[22].

وما يلاحظ على نص الجرجاني أنه نظرة كلية إلى النص القرآني، ثم اتبع ذلك ذكر مصطلحات

ذات علاقة بالتحليل النصي، منها ما هو متعلق بالجانب الشكلي للنص مثل قوله: «التئام، إحكام، نظام»، ومنها ما هو متعلق بالجانب الدلالي مثل: «اتساق، اتفاق»، ولا يقف عند حدود هذه المعطيات، بل يتابع بين العناصر التي تكفل تحقق هذه المعايير في النص، مستندا على نص القرآن الكريم كنموذج للنص المتكامل في تماسكه وانسجامه، يقول الجرجاني:«من وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وتصحيح الأقسام، وحسن الترتيب والنظام، والإبداع في طريقة التشبيه والتمثيل، والإجمال ثم التفصيل، ووضع الفصل والوصل موضعهما، وتوفيه الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما، مدخل فيما له القرآن كان معجزا»[23].

طبق الجرجاني نظرية النظم على النص القرآني، ليجعل منه نصّا إعجازيا تقف عنده العقول حائرة لسحر بيانه وإحكام تأليفه من أوله إلى آخره بين ألفاظه وآيه وفواصله، ويظهر ذلك من خلال أقواله وآرائه الموردة في كتبه المختلفة: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة والرسالة الشافية في الإعجاز، إذ نجده يؤكد في أكثر من موضع على أن القرآن لا يضاهيه نظم، ولا يرقى إليه فكر، كما أن النظم القرآني عنده لا يعود إلى ألفاظه منفردة عن تركيبها، وذلك لأن أهل العربية هم العرب، ومفرداتها في متناول العام والخاص منهم، لكن المزية تكمن في تراصف هذه المفردات مع بعضها البعض تحت غطاء معنى محدد مقصود، تتحد فيه أجزاء الكلام لتكوّن نصّا متماسكا بين أجزاء الجملة، وبين الجملة والجملة في مجموعة من العلاقات المنظمة والمتناسقة بين أطراف الكلام[24].

كما ربط الجرجاني بين النظم القرآني ومضمونه، وهذا يعني أنّه ربط بين جانبين لا يمكن الفصل بينهما لفهم المقصد من النصوص، وهما الجانب التركيبي، والجانب الدلالي، أو التماسك الشكلي والتماسك الدلالي، وهما كل ما يتعلق بالتحليل النصي وبكل ما يتصل به من جوانب متعددة، حيث يقول مفرقا بين نظم الحروف في الكلمة ونظم الكلمات في النص: «لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض... نظيرا للنسج والتأليف... والبناء... وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض... والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها ... واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علمًا، لا يعترضه شك، أن لا نظم في الكلم، ولا ترتيب، حتى يُعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذا بسبب من تلك... أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله»[25].

لقد أشار عبد القاهر الجرجاني في هذا النص إلى أهمية التماسك الدلالي، والتماسك بين أجزاء النص، وإلى التعالق، وإلى علاقة السببية، وهي من علاقات التماسك النصي[26].

ولعلّ الجرجاني أفضل من عالج موضوع التماسك النصي على المستوى الدلالي، إذ بنى نظرية النظم على التعالق بين الألفاظ والجمل، فهو يرى أن المستوى العالي من النظم هو الذي يتسم بالتماسك، وهو «أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حدٌ يحصره، وقانون يحيط به، فإنّه يجيء على وجوه شتى، وأنحاء مختلفة»[27].

وهذا معنى آخر للتماسك بصورة أوضح، مما نجده في النظريات اللسانية الحديثة المهتمة بالنص.

إن ما سبق عرضه هو من ملامح النظرية النحوية النصية، التي تظهر بشكل جلي عند عبد القاهر الجرجاني، ومن الإشارات النصية أيضا تحديده مفهوم النص وقواعد تشكيله، بالتزامه منهجا فكريا منظما؛ فالنص عند الجرجاني هو النظم، وإن بناء النص وإنتاجه لا يكون إلا بقوانين وآليات خاصة، وهي قوانين النحو وأصوله، بحيث يقول: «اعلم ان ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تخلَّ بشيء منها...» [28].

فهذه جملة من القواعد ذكرها الجرجاني، ليصف من خلالها القيود التي يلتزمها المتكلم في تأليفه ثم يعرض لمعاني النحو.

وأرجع الجرجاني صحة النظم أو فساده إلى معاني النحو وأحكامه، وتحرّى أدوات الربط النحوية وأثرها في التماسك الدلالي، وحدد علاقاتها النحوية والأسلوبية، الأمر الذي جعل المحدثين يستفيدون كثيرا مما قدمه الجرجاني في هذا الشأن.

إن الجرجاني يميل إلى جعل النظم في الفكر أوّلا قبل اللفظ، ولا يقيم وزنا كبيرا للفظ وحده دون علائق تربطه بما حوله في النسق الواحد، فالمتكلم أو المرسل يمتلك مجموعة من المعاني التي تترابط أفكارا كاملة لديه، وهي الرسالة التي يبغي توصيلها، ولكل معنى لفظ محدد دال عليه، كما أن لكل تركيب معنى خاصا يقدمه، ليصل في النهاية إلى أفكار ومعايير مرتبة ترتيبا خاصا، ويستدعي هذا الترتيب الخاص في ذهن المرسل ترتيبا خاصا للألفاظ[29].

وهذا ما قرره روبيرت آلان دي بوجراند Robert Alain De Beaucrande بالنسبة لعملية إنتاج النص وتلقيه، حيث يقول:«وعلى منتج النص أن يضع خطة للمحتوى المفهومي والعلاقي للنص، ثم يضع هذا المحتوى في صورة سطحية، أما من يستقبل فعليه أن يخطط لإعادة السطح إلى المحتوى، وإعادة المحتوى إلى الخطة التي وضعها هو لهذا المحتوى»[30].

فعبد القاهر يتفق مع دي بوجراند في أن منتج النص يبدأ بترتيب المعاني والأفكار في نفسه، ثم يختار لها الألفاظ المناسبة فيرتبها ترتيبا خاصا، طبقا لهذه المعاني دون فصل زمني بينهما.

وهذا الموقف من عبد القاهر تجاه عملية إنتاج النص عدّه تمام حسان أمرا جديدا في الدراسات اللغوية عند القدماء، حيث «درجت الدراسات التحليلية على العناية بموقف المتلقي من النص دون العناية بموقف منتج النص؛ أي أنها وجهت كل عنايتها للفهم، ولم تعن إلاّ في القليل بالصياغة، فلا نكاد نجد في تراثنا العربي من يعنى بجانب الصياغة إلاّ عبد القاهر الجرجاني، الذي اقترح للصياغة أربع مراحل هي: النظم، والبناء، والترتيب، والتعليق، وإذا كان عبد القاهر قد استمد هذا الإطار الفكري من مذهب الأشاعرة في مسألة الكلام النفسي، فلقد كان سابقا بعدّة قرون للدراسات اللغوية النفسية الحديثة التي تتناول إنتاج النص اللغوي»[31].

ومن مظاهر التماسك النصي عند عبد القاهر الجرجاني، والتي اتخذت طابعا فكريا ومنهجا منظما في نظرية النظم القائمة على نظام التعلّق، تحليلاته العميقة لقوله تعالى: ژئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ئد ژ [سورة هود: 44]، إذا أرجع مزية الإعجاز فيها إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض، حيث يقول: «فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي تري وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة، إلاّ لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلم بعضه ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟ ... ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة.. أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب»[32].

وعليه فيمكننا القول إن الجرجاني في نظرية النظم، قد أشار إلى الكثير من التحليلات النصية، الموجودة في كتبه، والتي أفاد منها علماء لسانيات النص المحدثين عربا كانوا أم غربيين.

جـ-الفراء و ابن السرّاج و ابن هشام/الترابط النحوي النصي في القرآن الكريم:

لقد ظهرت عناية النحاة بعناصر الترابط النحوي في النص القرآني من خلال شيوع مفاهيم الترابط النحوي ووسائله في الدرس النحوي منذ وقت مبكر، نحو: مفاهيم الكلام والجملة، والتأليف والتركيب، وتتعدد وسائل الترابط في الجملة وتتنوع من وسائل معنوية ولفظية بين العناصر الإسنادية وغير الإسنادية في الجملة، وعلى ضوء هذه المفاهيم درس النحاة بنية النص القرآني على أنها بنية مقصودة متماسكة وغير مستقلة عن السياق، وبحثوا علاقات اتصال الكلام أوله بآخره وعلاقات الألفاظ بعضها ببعض، وربطها بالحكم الإعرابي[33].

حيث يميز الفراء (ت207هـ) بين دلالة الاستئناف والعطف في قوله تعالى:ژگـگ گگگ گ

ﮒ ﮔﮕﮖﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝﮞ ﮟﮠﮡ [إبراهيم: 4]... ثم قال: ﮋﮢﮣﮤﮥﮊ، فرفع، لأن النيّة فيه الاستئناف، لا العطف على ما قبله(34).

ويربط هذا الحكم بنصوص أخرى: ﮋﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮊ [الحج: 5] ومثله في: ﮋﭑﭒﭓﮊ [التوبة: 14]، ثم قال: « ويتوب الله على من يشاء»(35).

ويستنبط الفراء قاعدة التمييز بين العطف والاستئناف، وهي مشاكلة معنى الفعل السابق للواو، قال :«فإذا رأيت الفعل منصوبا وبعده فعل قد نُسق عليه بواو، أو فاء، أو ثمّ، أو أوْ، فإنّ كان يشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه، وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته »(36).

وهذه معاني دقيقة أشار إليها النحاة القدماء، تنبؤ عن وعيهم المبكر بدقائق اتصال الكلام وانفصاله، وتعلق أجزائه بعضها ببعض، وإضافة إلى إدراك النحاة للفروق المعنوية الدقيقة في العطف بالواو، والاستغناء عنها في الآتيتين: ﮋﭑﭒﭓﭔﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﮊ [إبراهيم: 6]، وقوله تعالى: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘﮊ[البقرة: 49]، وفرّق الفراء بين دلالة (الذبح) ودلالة (التذبيح): «فمعنى الواو أنهم يمسّهم العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح، ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مُحملًا في كلمة ثم فسرته، فأجعله بغير الواو، وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو»(37).

لقد بني النحو العربي على مفاهيم الارتباط والتماسك بين أركان الجملة، فكانت علاقات الإسناد، والتلازم بين المسند والمسند إليه والمتعلقات مظهرا من مظاهر التماسك النصي في علم النص(38).

كما تحرّى النحاة البنية العميقة في الكلام، فقد ربطوا بين الدلالات السطحية والبنية العميقة، وهذا نوع من التماسك فظنوا إليه، وفسرّوا بعض النصوص القرآنية، وأقاموا أحكامهم عليها مع مراعاة المخاطب والمتكلم، وحقيقة الخطاب في الكلام، ومنه ما ذكره ابن السراج (ت316هـ)، في تقسيمه أنواع الفاعل الحقيقي وغير الحقيقي (الضرب الثالث منه)، قال: «والضرب الثالث: أفعال منقولة يراد بها غير الفاعل الذي جعلت له نحو قولك: لا أرينك هاهنا، فالنهي هو للمتكلم كأنه ينهي نفسه في اللفظ وهو للمخاطب في المعنى وتأويله: لا تكوننّ ها هنا، فإن (من) حضرني رأيته ومثله قوله تعالى: ﮋﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﮊ [آل عمران: 102] لم ينههم عن الموت في وقت، لأن ذلك ليس المهم تقديمه وتأخيره، ولكن معناه: كونوا على الإسلام، فإن الموت لا بد منه، فمتى صادفكم صادفكم عليه، وهذا تفسير أبي العباس»(39).

ومن كلامه أيضا عن الروابط، والتي فصل من خلالها وأشار إلى مسألة الربط بالحرف، قوله: «اعلم أن الحرف لا يخلو من ثمانية مواضع، إما أن يدخل على الاسم وحده مثل: الرّجل، أو الفعل وحده مثل: سوف، أو ليربط اسما باسم:(جاءني زيد وعمرو)، أو فعلا بفعل، أو فعلا باسم، أو على كلام تام، أو ليربط جملة بجملة أو يكون زائدا... وأما ربطه جملة بجملة فنحو قولك: (إن يقم زيد يقعد عمرو)، وكأن أصل الكلام (يقوم زيد يقعد عمرو)، فيقوم زيد ليس متصلا بيقعد عمرو، ولا منه في شيء فلما دخلت (إن) جعلت إحدى الجملتين شرطا والأخرى جوابا»(40).

لقد أظهرت هذه الإشارات النصية دقة فهم النحاة في الربط بين ظاهر النص وباطنه، بما يحقق التماسك بين أجزاء النص وربط الأحكام النحوية بمقاصدها لتعيين المعنى المراد.

ومن النحاة الأوائل الذين أسّسوا للترابط النصي، من خلال شيوع مصطلحات دالة على ذلك، نجد ابن هشام (ت761هـ)؛ فقد أسهم ببحوثه في التأسيس لنظرية نحوية نصية في النحو العربي، فظهرت عنايته بمظاهر الترابط النحوي النصي في القرآن الكريم، فهو أول من حدد أنظمة الربط في الجملة القرآنية، ودرس علاقاتها، ومواضع الارتباط فيها.

كما أن الروابط التي حددها ابن هشام، أو المواضع التي تحتاج إلى روابط كالجملة المخبر بها، والجملة الموصوف بها، والموصول بها، والواقعة حالا، أغلبها اعتمدها علماء النص المعاصرون.

فهذه إذن إشارات نصية كانت مبثوثة في كتب النحو العربي، وما خفي منها كثير ، وإن دلّ على شيء فإنما يدل على النظرة الثاقبة لأمثال ابن هشام وغيره.

2-2- التماسك النصي عند البلاغيين:

علاقة البلاغة بالنصوص علاقة قديمة، على عدة مستويات، وعند الحديث عن التماسك النصي عند علماء البلاغة القدماء، فإن هذا يحيلنا إلى نظرية قديمة في الدراسات البلاغية، ألا وهي نظرية النظم –التي رأينا فيما سبق- أنها قد ارتبطت بالدراسات القرآنية،وظهرت على إثر ذلك مجموعة من المؤلفات حول نظم القرآن؛ إذ تواترت آراؤهم فيه، فذكروا أوجها جمة، وذلك منذ مطلع القرن الرابع الهجري 04هـ،نذكر منها على الترتيب:

-إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الرابطي (306هـ).

-نظم القرآن لأبي بكر بن أبي داود السجستاني (316هـ).

-نظم القرآن للجاحظ (255هـ).

-إعجاز القرآن للباقلاني (403هـ).

-الرسالة الشافية في الإعجاز للجرجاني (471هـ)... إلى غير ذلك من المؤلفات[41].

إن دراسة الأبنية النصية، والوظائف الجمالية المتعددة للنصوص، وكذلك الاهتمام بفصيح الكلام الذي تتناسق معانيه مع ألفاظه، كانت من اختصاص البلاغيين كما سترى.

أ-ابن قتيبة (213هـ-276هـ)/انسجام النص القرآني:

تظهر التحليلات النصية عند ابن قتيبة، منذ تأليفه لكتابه: "تأويل مشكل القرآن"، الذي ألّفه في القرن 03هـ، وهدف الكتاب هو الرد على الملاحدة، الذي يريدون الطعن والانتقاص من القرآن الكريم، إذ اتبعوا ما تشابه منه لقوله تعالى: ﮋ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﮊ [آل عمران: 07].

ويقول ابن قتيبة: « فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة وأكشف للناس ما يلبسون»[42].

فقد طعن هؤلاء الملحدون في القرآن من وجوه مختلفة، من خلال ادعائهم اللحن، والتناقض والاختلاف، كما تأولوا الكثير من القضايا .

ودفاعا عن القرآن الكريم وبلاغته، بدأ ابن قتيبة بتقديم حجج هؤلاء، ثم ينتقل إلى حججه بمنهج واضح وبموضوعية تجعل ابن قتيبة يخطو خطوة في الدرس العلمي العربي القديم، كما استطاع ابن قتيبة أن يقدم إرهاصات نصية قريبة من علم لسانيات النص، وذلك من خلال[43]:

1-النظرة الشاملة للنص القرآني كله، فلا يقدم موقفه إلا بعد عرض مختلف الآيات الواردة، من ذلك في باب تكرار الكلام والزيادة فيه، فمثلا ابن قتيبة يفرق بين الواو كأداة ربط، والواو غير الرابطة، أو قد تزاد حتى يكون الكلام كأنّه لا جواب له، كقوله تعالى: ﮋ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﮊ [الزمر: 73]، والمعنى قال لهم خزنتها .

كما كان ابن قتيبة يهتم بدور أدوات الربط في اتساق النّص.

2-حديثه عن التكرار والحذف في القرآن الكريم، ومن ذلك أن يأتي بالكلام مبينا أن له جوابا، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به، ويمنحه بعدا تداوليا.

3-انسجام القضايا الواردة في النص القرآني، ليبدو ذلك واضحا، وهو يرد على من ادعى على القرآن التناقض، والاختلاف، يقول:(فأما ما نحلوه من التناقض في مثل قوله تعالى:ﮋ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﮊ [الرحمن: 39]،وهو يقول في موضع آخر: ﮋ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﮊ [الحجر: 92-93].

فالجواب في ذلك: أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى: ﮋ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﮊ [المعارج: 04]).

إذن فقد عالج ابن قتيبة انسجام النص القرآني، من خلال نظرته الشاملة للنص القرآني، ولا يتحقق هذه الشمولية إلا مثل النماذج التي أوردناها في النقاط الثلاث السابقة.

ب-الباقلاني (ت404هـ)/ائتلاف النظم:

أكّد الباقلاني في كتابه :"إعجاز القرآن" على خصوصية امتاز بها النص القرآني عن باقي النصوص الأخرى، تمثلت في إخباره عن الغيوب وأمور المستقبل، وهذا وجه من وجوه الإعجاز، إلى جانب أن الباقلاني ركّز على ما تميز به ذلك النص من تآلف واعتصام بين أجزائه حتى كأنه نص واحد[44].

وفي هذا شيئان: الأول: الوقوف على سر الإعجاز القرآني، والثاني: الإشارة إلى ما في كتاب الباقلاني من إشارات وتحليلات نصية.

وإعجاز القرآن عند الباقلاني يكمن في أسلوبه، بين سوره وآياته ومواضيعه؛ فالقرآن معجز في أسلوبه الذي يسير على سنن ونمط متجانس، دونما إخلال، أو اضطراب، أو تفاوت بين سورة وسورة، أو آية وآية، أو موضوع وموضوع، فهو على الدوام منفرد بذلك الأسلوب[45].

ويرى الباقلاني في أسلوب البشر النقص والاضطراب، والاختلال في معانيه أحيانا، وقد يظهر لك منه عدم انسجام المعاني واختلال في المباني، على عكس القرآن الكريم، الذي تظهر لك منه روعة النظم، وحسن السبك، يقول: «وأنت ترى غيره -أي القرآن- من الكلام يضطرب في مجاريه، ويختل تصرفه في معانيه،ويتفاوت التفاوت الكثير في طرقه... ويريبك في أطرافه وجوانبه... ونظم القرآن في مؤتلفه ومختلفه، وفي فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفي كل نهج يسلكه»[46].

هذا القول فيه الكثير من الإشارات النصية في القرآن الكريم، من ذلك، ائتلاف النظم، أي تماسكه وانسجامه، والفصل والوصل، والمناسبة في الافتتاح والاختتام.

إن حقيقة الإعجاز عند الباقلاني تكمن في بنية النص القرآني المنتظمة والمتماسكة والخارجة عن المألوف والمعهود من جميع أصناف الكلام العربي، ويعبر الباقلاني عن هذه النظرة في (إعجاز القرآن)، بقوله: « وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد... حيث يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب... وهذا أمر عجيب تتبيّن في الفصاحة وتظهر في البلاغة»[47].

ركّز الباقلاني على بديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه، وليس النظم وحده معجزا بل ما يتفق معه من معاني دقيقة، إذ ليس الإعجاز، عنده في نفس الحروف، وإنما في نظمها وإحكام رصفها، بالإضافة إلى ائتلاف الألفاظ وفق المعاني في تماسك تام، وتأليف دقيق تعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[48].

ويربط الباقلاني في استعمالاته بين النظم والتأليف والرصف وبديع الرصف، كما يبدو ذلك واضحا، وهو يحلل سورة النمل، حيث يقول:«ثم انظر فيها آية آية وكلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم، وبديع الوصف؟ فكل كلمة لو أفردت، كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية... ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل»[49].

ويقدم الباقلاني نظرة أخرى تجمع بين التحليل البصير، والتذوق الرفيع، حين يقوم بتفسير انسجام الآيات، رغم تباعد مقاصدها، فقد تجد آيات متباعدة في المواقع نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا من الشيء المؤلف في الأصل[50].

ويستشهد بالآيات القرآنية، لتأييد موقفه، ومحاولا تفسير انسجام النص القرآني، رغم تعدد مواضعه، والانتقال من معنى إلى آخر، وكل هذه النصوص تأتلف وتتقارب، وما يلاحظ على المصطلحات الواردة عند الباقلاني، أنها من صميم الدراسة اللسانية النصية، كالضم والوصف والنظم والانسجام، دون أن نجد لها تفسيرا لغويا في كتبه، بل يكتفي بالإشارة إلى موضع الظاهرة، ومستخدما المصطلح المناسب.

جـ-الرماني و الخطابي والعسكري وابن الأثير/التلاؤم وحسن التأليف والسبك:

أشار الرماني (ت386هـ) إلى التلاؤم، وأراد به حسن النظم، وجودة ا لسبك[51] وذهب الخطابي (ت388هـ)، إلى أن نظم القرآن لا يصل إليه نظم آخر، ولا يوجد نظم أحسن تأليف وأشد تلاؤما من نظمه، لاشتماله على اللفظ الحامل والمعنى القائم والرباط الناظم[52]، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض[53]، وذكر أبو هلال العسكري (ت395هـ) أن من أحسن نعوت التئام الكلام وأزين صفاته أن يكون من حيث الإطناب والإيجار مناسبا لموقعه موافقا للمقام والحال[54].

ويقول أيضا أبو هلال العسكري معقبا على أبيات للنمر بن تولب (ت نحو 14هـ): «فهذه الأبيات

جيدة السبك حسنة الرصف»[55].

ويقول أيضا: «...وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا... وحسن الوصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم، والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام، ولا يُعمي المعنى، وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لَفِقِهَا»[56].

وهذا لأنّ صحة السبك والتركيب والخلوّ من عوج النظم والتأليف شرط لكمال النظم ووضوح الفهم، مثّل التماسك النصي الذي عدّ النص من خلاله نصّا، وذلك باعتباره معيارا رئيسا من معايير النصية التي يشاد بها في الشعر الجيد المسبوك.

أما ابن الأثير (ت637هـ)، فحين تحدث عن تفضيل لفظ على آخر، قال: «ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن الاستعمال، وهما على وزن واحد، وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلاّ من دق فهمه وجل نظره، فمن ذلك قوله تعالى: ﭽ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂﭼ[الأحزاب: 4]، وقوله تعالى:ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰﭼ [آل عمران: 35]، فاستعمل "الجوف" في الأولى و"البطن" في الثانية، ولم يستعمل "الجوف" موضع البطن" ولا "البطن" موضع "الجوف"، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد أيضا. فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل»[57].

3_الخلاصة:

إن في حديث هؤلاء العلماء دليل على إدراكهم مفهوم التماسك النصي، وإحساسهم بأهميته، فقد أشاروا إلى النظم والارتباط والتلاؤم والسبك والتلاحم، وهذه المصطلحات تتصل بالتماسك النصي، وقد سبقوا بهذه الإشارات أصحاب نظرية علم النص في العصر الحديث.

كما أن التماسك النصي له جذور عند علماء والنحو والبلاغة وتفسير العرب، من خلال البحث في سر إعجاز القرآن الكريم، وهذا يعني أنه ليس وليد الدراسات اللسانية الحديثة، وإنما الجديد هو طريقة توظيف المصطلحات وتطبيقها على النصوص، لأن القدماء أدركوا هذه الظواهر النصية شكليا ودلاليا ، والتي كشفت على أنه نص غاية في التماسك والانسجام شكلا ودلالة.

-الهوامش:

1. _ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، مادة (مسك) ، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419ه- 1998م، ج02، ص213.
2. _ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تح :عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، مادة (مسك)، مج2، ج46، ص4203-4205.
3. _ محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص5.
4. _ سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ط01، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، مصر، 1997م، ص9.
5. _ أشرف عبد البديع عبد الكريم، الدرس النحوي النصي في كتب إعجاز القرآن الكريم، دار فرحة للنشر والتوزيع، 2003م، ص34.
6. _ محمد خطابي، لسانيات النص :مدخل إلى انسجام الخطاب، ص97-140.
7. _ أحمد محمد عبد الراضي، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ط01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1429ه-2008م، ص134-135.
8. _ عمر أبو خرمة، نحو النص: نقد النظرية...وبناء أخرى، ط01، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1425ه -2004م، ص80.

9. _ حسين خمري، نظرية النص:من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1408ه_ 2007م، ص226.
10. _ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ط1، دار قباء، القاهرة، مصر، 1421 ه -2000م، ج1، ص63.
11. _ سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408ه-1988م، ص25-26.
12. [1] _ خليل بن ياسر البطاشي، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ط1، دار جرير، عمان الأردن، 1430ه-2009 م ، ص36-37.
13. _ أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تح: عبد الله دراز، ط2، دار الفكر العربي، بيروت_ لبنان، 1395هـ-1975م ، ج4، ص116.
14. _ علي النجدي ناصف، تاريخ النحو، دار المعارف، القاهرة، 1978م ، ص19.
15. _سيبويه، الكتاب، ج1، ص24.
16. _ المصدر نفسه،ج1، ص23.
17. _ المصدر نفسه ، ج1، ص84، 87-88.
18. _المصدر نفسه،ج1، ص87.
19. _صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، ص132.
20. _ سيبويه،الكتاب، ج1، ص88.
21. _ إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ط01، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2007م ، ص213.
22. _ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، ط05، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004م ، ص39.
23. _ المصدر نفسه ،ص59.
24. _حسن عبد القادر، شرح وتفسير الشافية في الإعجاز مع دراسة وجوه الإعجاز،01، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص24.
25. _الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص49-55.
26. (صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، ص127.
27. _الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص93.
28. _ المرجع نفسه ، ص81.
29. _أحمد محمد عبد الراضي، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ص140.
30. _ روبيرت دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء، تر :تمام حسان، ط01، دار عالم الكتب، القاهرة، 1998م ، ص421.
31. _المرجع نفسه، ص5.
32. _الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص45-46.
33. (_هناء محمود إسماعيل: النحو القرآني في ضوء لسانيات النص،، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م، ص184.
34. _أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي نجار، عبد الفتاح إسماعيل، شلبي، ط3، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1422هـ-2011م، ج2، ص67.
35. _المصدر نفسه، ج2، ص ن.

36. _المصدر نفسه،ج2، ص68.
37. _الفراء، معاني القرآن ،ج2، ص69.
38. _صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، ص71.
39. _أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ-1996م، ج1، ص74.
40. _ أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417هـ-1996م ، ج1، ص42-43.
41. _محمد خان، القرآن الكريم ونظريات الإعجاز، مجلة التواصل، مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية، محكمة، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، العدد2، جانفي1997م، ص7.
42. _ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، ط3، المكتبة العلمية، المدنية المنورة، 1971م، ص23.
43. _ نوال الخلف، الانسجام في القرآن الكريم: سورة النور أنموذجا (أطروحة دكتوراه)، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص103-104.
44. _ نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)، ط7، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2008م ، ص148.
45. _ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، (دت)، ص213.
46. _ المصدر نفسه ،ص 113-314.
47. _ المصدر نفسه ، ص51-57.
48. _حسن عبد القادر، شرح وتفسير الشافية في الإعجاز مع دراسة وجوه الإعجاز، ص22.
49. _الباقلاني، إعجاز القرآن،ص289.
50. _المصدر نفسه، ص218.
51. _ الرماني، الخطابي، الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1986م ، ص96.
52. _المصدر نفسه، ص27.
53. _المصدر نفسه، ص26.
54. _أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصّناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 01، دار إحياء الكتب العربية، 1371ه_1952م، ص141.
55. _ المصدر نفسه ، ص169.
56. _ المصدر نفسه، ص161.
57. _ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر،ج1، ص143.